أهميّة الأدب الألخميادو الموريسكي في «المعجم الإيتيُمولوجي القشتلّي لخوان كورومينـاس»

أ. محمّد نجيب بن جميع
قسم الإسبانية
كلية الآداب منّوبة

لقد استُعْمِلَ الأدب الألخميادو الموريسكي باعتباره وثيقة تاريخيّة لمعرفة المجتمع الإسباني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولكن نادرا ما استُخْدِمَ في دراسة أصول اللّغة الإسبانيّة. وما كان لنا أن نطرق هذا الباب الخطير لو لم نتمكّن من اللّغة الإسبانيّة، هذه اللّغة الّتي تعامل معها الموريكسيّون تعاملا خاصّا، فقد نقلوا إليها العديد من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة وكتب التفسير وعبّروا بها عن كلّ الهواجس الّتي تنتابهم والآمال الّتي يتوقون إليها. وقد اعتمدوا في كتابتهم على الحرف العربي لا الحرف اللّاتيني، وذلك تعبيرا منهم عن تمسّكهم بدين الإسلام واعتزازا بقدسيّة الخطّ العربي الّذي نزل به القرآن.

فمن هم الموريسكيّون وما هو الأدب الألخميادو وما قيمة هذا الأدب في المعجم الإيتيمولوجي القشتلّي لخوان كوروميناس (Joan Corominas) ؟.

الموريسكيّون : هم المدجّنون أي بقايا الأمّة الإسلاميّة الّتي أُجْبِرت هي وأبناؤها على التنصّر بالأندلس. وقد بقي أفرادها، بصفة عامّة، مُخلصين لدينهم الإسلامي، ومارسوا عقيدتهم سرّا بالرّغم من حملات القمع والتعذيب الّتي كانت تقوم بها السّلطات الإسبانيّة عن طريق ما أصبح معروفا بمحاكم دواوين التفتيش (Tribunal inquisitorial) .

وكانت أكبر تجمّعات الموريسكيّين مستقرّة بمقاطعة بلنسيّة وأرغون (Aragón) وغرناطة، إلى جانب أقليّات في قشتالة (Castilla) وقطلونية (Cataluña).

الأدب الأخميادو : هي النصوص الّتي كُتبت بالأخميّة (Aljamía) أو الأخميادو (Aljamiado) . والأخميادو هي لغة الموريسكيّين. والكلمة هي عبارة عن اصطلاح إسبانيّ يُطلق على الإسبانيّة المكتوبة بحروف عربيّة. وأصل كلمة أخميّة هو «أعجميّة». ويمثّل استعمال الحروف العربيّة في النصوص الأخميادية علامة خارجيّة تشير إلى انتماء هذه المجموعات إلى الأمّة الإسلاميّة. وكانت العقوبات المسلّطة عليهم نتيجة لذلك وعند اكتشاف أمرهم قاسية. لهذا السبب كانت الكتابة بالأخميادو كتابة سريّة ومن إنتاج أقليّة موريسكيّة من القرن الرّابع عشر إلى القرن السابع عشر .

أمّا محتوى النّصوص الأخميادية فهو أساسًا دينيّ بالمعنى الواسع للكلمة. فإلى جانب الوثائق الفقهيّة نجد مقالات تدعو إلى الإسلام والتمسّك به، وتفسّر قواعده، وتضبط سلوك المسلم المثالي، وتبيّن كيفيّة القيام بالشعائر الدّينيّة كالصلاة والصوم. كما نجد نصوصا جدليّة تمجّد الإسلام وتستنقص المسيحيّة، وأخرى في القانون والسحر والطبّ والفلك، كما نجد ضمن هذه النّصوص بعض الأشعار والقطع النثريّة تقوم على الخيال تمثّل تنبّؤات عن سقوط النصرانيّة في الأندلس ورجوع الإسلام إليها على يد الأتراك.

لقد ترك لنا الموريسكيّون من خلال ملحمتهم المأسويّة الّتي تضمّنها الأدب الأخميادو شهادة بيّنة عن انقراض كيانهم الثقافي بعد انقراضهم السياسي والعسكري بانقراض دولة الإسلام بالأندلس .

لقد كُتِبَ هذا الأدب في الخفاء لذا لم يُكْشَفْ عنه إلّا بعد فترة من تهجير الموريسكيّين إلى العُدوة الإفريقيّة. فقد عُثر على بعض المخطوطات بمدينة ريكْلَا (Ricla) سنة 1728. كما عُثِرَ على مجموعة أخرى هامّة بمدينة ألمونائيد دي لاسيرّا (Almonacid de la Sierra) سنة 1884. ومازال هذا التراث مشتّتا في عديد المكتبات الإسبانيّة والأروبيّة والعربيّة.

ولقد بدأ فكّ رموز الأدب الأخميادو في القرن التاسع عشر على يد مستعربين إسبان: أمثال بسكوال قيّانقوس (Pascual Gayangos) وإيدواردو سافيدرا (Eduardo Saavedra). وخلال القرن العشرين مهّد المستعربان الإسبانيّان خوليان ريباره (Julián Ribera) وأسين بلاثيوس (Asín Palacios) الطّريق لباحثين اختصوا في هذا الميدان : أمثال الإنقليزي هارفي (P. Harvey) والألماني كونتزي (R. Kontzi) والبورتوريكيّة بارالت (L.L. Baralt) والكندي هيجي (O. Hegyi) والفرنسي كرديّاك (L. Cardaillac) والإسبان رودريقاث (A.V.

(Rodríguez) وإيبالزا (M. de Epalza) وفوانتاس (A.G. de Fuentes) والمغربي حسين بوزينب والتونسي محمّد نجيب بن جميع.

لقد اعتمدنا في هذه الدراسة على «المعجم الإيتيمولوجي القشتلّي» لخوان كورومیناس وعلى المخطوطة الألخميادية رقم 774 للمكتبة الوطنيّة بباريس. واستخرجنا من «المعجم» الكلمات الألخميادية المشفوعة بتعليق لغويّ (ويبلغ عددها 104 كلمة)، لنبيّن أهميّة الأدب الموريسكيّ في دراسة لغة الإسبان من جهة ولغة عرب الأندلس من جهة أخرى. وقد أكّدنا على القيمة الصوتيّة للرّموز الخطيّة الّتي تتضمّنها النصوص الموريسكيّة، كما درسنا خاصيّة هذه اللّغة الموريسكيّة من حيث هيكلها النحوي والصّرفي والدّلالي. ونريد هنا التأكيد على أهميّة هذا الأدب في معرفة بعض المظاهر الخاصّة بلهجات محليّة وبلغة الأندلسيّين، وكشف أسرار بعض القضايا المعجميّة :

1 ــ المستوى الصّوتي :

إذا ما نظرنا إلى لغة هذه النّصوص من حيث علم الأصوات وجدنا أنّها تشابه نَسَقَ الإسبانيّة القروسطيّة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا النّسق خال من التذبذب الّذي ينتج عن تداخل لغتين . فعادة ما يكون التحريف المتداول في النّصوص الألخميادية يتّصل بالخلط بين الصّوتين / ز / و / س / مثال ذلك : أَلْبِسْرَ (Albiçra)، مُسْلِمْ (Muçlim)، بُسُنْ (Poçón)، مِسْكِيدَه (Meçkida)، كُرَزُونْ (Corazón)، زَرْكُو (Zarco)، أَلْمَزْشِدْ (Almazchid).

ــ وبين الصّوتين / ش / و / س / نظرا لعدم وجود صوت بين / ش / و / س / في العربيّة.

ــ وبين الصّوتين / شّ / و / جّ / مثال ذلك :
أكشدريّا (Acoxadría)، جَرِيفُ (Jarifo).

ــ وبين الصّوتين / خ / و / ج / و / ي / و / لّ /.
وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذا الخلط هو ظاهرة عامّة للّغة الإسبانيّة في فترتها الثوريّة الانتقاليّة، أي خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر، ممّا حدا بالإسبان إلى إعادة هيكلة هذا النّظام الصّوتي. ويمكن العثور على هذا الخلط أيضا في نصوص لكتّاب مسيحيّين إسبان، لذا لا يمكننا اعتباره ميزة خاصّة بلُغَة الموريسكيّين بل هو مجرّد اختيار لم يقع تعميمه.

إلّا أنّ النّصوص الألخميادية الموريسكيّة قد تمدّنا بأمثلة توحي لنا بوجهات نظر من شأنها

أن تحلّ بعض المشاكل الّتي تواجهنا في دراسة لغة الموريسكيّين العربيّة في شبه الجزيرة الأندلسيّة، فنستنتج بعض مميّزات هذه اللّغة العربيّة. وعلى سبيل المثال نذكر:

أ ــ سقوط علامة المدّ الخاصّة بالعربيّة الفصحى، مثال ذلك: سليمان نجدها سُلَيْمَنْ وسلام نجدها سَلَمْ.

ب ــ سقوط التّشديد، مثال ذلك: عزّ تصبح عَزَ، وجلّ تصبح جَلَ.

ج ــ سقوط العين، مثال ذلك: العبادة تصبح البَادَة، والعذاب الذَاب والعبّاس البَاسْ.

د ــ وجود صوت / P / عوضا عن / ب / مثال ذلك : أپاسْ (Apeç) .

هـ ــ سقوط لام أداة التعريف مع الحروف الشمسيّة ومع حرف الجيم. كَـ : أُظْهُرْ عوض الظُّهْرُ وأشَمْسُ عوض الشَّمْسُ.

2 ــ المستوى الصّرفي :

أمّا الصيغ الصّرفيّة في اللّغة الأخميادّية فإنّها مطابقة للقواعد الصرفيّة للّغة الإسبانيّة، ولا تظهر في هذا المستوى تداخلات مع اللّغة العَربيّة إلّا في حالات شاذّة. فالاقتراض مثلا هو نفسه يخضع لقواعد اللّغة الإسبانيّة من ذلك أنّ :

ــ خَلاَقَارْ (هو فعل : خَلَقَ) أصبح في الأخاميّة : Jaleqar .

ــ خَلاَقَمِيَنْتُو (هو آسم : الخَلْقُ) أصبح في الأخاميّة : Jaleqamiento.

ــ أَسَجْدَرْ (هو فعل : سَجَدَ) أصبح في الأخاميّة : Açajdar.

ــ أَسَجْدَمِيَنْتُو (هو اسم: السُجُودُ) أصبح في الأخاميْة : Açajdamiendo.

ــ هَرَّامَرْ (هو فعل: حَرَّمَ) أصبح في الأخاميّة: harremar.

3 ــ المستوى التركيبي :

على أنّ الخاصيّة الأكثر وضوحا نلاحظها في مستوى تركيب الجملة الأخميادّية الّتي غالبا ما تحاكي التركيب العربي، لا سيّما إذا كان النّص الموريسكي منقولا عن أصل عربيّ من ذلك:

أ ــ الجملة «نُؤْمِنُ بِكَ».

بالأخميادو، نجدها على هذه الصورة :

كَرَايَامُوسْ كُونْ تُو ــ Kreemos Kon tu.

وفي الإسبانيّة نقول : Creemos en ti.

حينئذ هناك محاكاة لحرف الجرّ ب الّذي ترجم بـ Kon. وهذا تحريف للّغة الإسبانيّة، اذ التعبير الصّحيح يكون بالأداة en.

ب ــ الجملة «نَرْجُو رَحْمَتَكَ ».

بالألخميادو، نجدها على هذه الصورة :

تَانَامُوسْ آسْبَارَنْسَ أَتُّارَّحْمَ Tenemos esperança a tu arrahma.

وفي الإسبانية نقول : Tenemos esperanza en tu bendición.

فقد جعل الفعل «تَانَامُوسْ آسْبَارَنْسَ» (نرْجُو) مُتَعَدِّيًا، متأثّرًا في ذلك بالعربيّة الفصحى، فآستعمل الأداة « a » عوض « en ». والحال أنّ هذا الفعل غير متعدٍّ في الإسبانيَّة.

ج ــ العبارة «بين أظهر المشركين»:

بالألخميادو جعلوها على هذه الصورة : آنْتِرَالَسْ آسْبَلْدَسْ دَا لُسْ دَاسْكَرَايَانْتَاسْ Entre las espaldas de los desKreyentes.

وفي الإسبانيّة نقول : Entre los descreyentes.

فقد وقعت محاكاة الجملة العربيّة لفظا بلفظ في الألخميادو.

د ــ تكرار حرف العطف كما هو الحال في العربيّة:

جاء في النصّ الألخميادو :

Nos te demandamos ayuda i te demandamos ghiya i t demandamos perdón i te demandamos luz i Kreemos en tu i sostribamos sobre tu i nos humillamos.

وهو متأثّر بالعربيّة :

نسألك العون والعفو والرحمة والنّور ونؤمن بك ونتوكّل عليك ونخضع إليك.

هـ محاكاة لصيغ التأكيد في العربيّة :

« سلّم تسليما » نجدها في النصّ الأخميادو : سَلْفَا سَلْفِمِيَانْتُو Salve Salvamiento

« الرّحمان الرّحيم » نجدها في النصّ الأخميادو آلْ بِيَدُسُ دِي بِّيَادَدْ El piadoso de piedad.

4 ــ المستوى المعجمي :

أمّا ميزة النّصوص الموريسكيّة فهي تخصّ المعجم، من ذلك غموضها لمن لا يعرف العربيّة. وهذا ما جعلنا نعير هذا الجانب بالغ الاهتمام. فالعديد من الكلمات هي اقتراض أو تبنّ عرضيّ، من ذلك أنّنا نجد في نفس النصّ الأخميادو على سبيل المثال كلمة Mensajero تارة وكلمة «رسول» تارة أخرى. وكلمة Piedad أحيانا وكلمة «الرّحمة» أحيانا أخرى. وهذا التناوب في الإستعمال يترجم عن صراع نفسيّ خفيّ متولّد عن تلك المجابهة الجدليّة بين المسلمين والنصارى في مستوى العقيدة. ففي النصّ الأخميادو، نجد الكلمات التالية: الرّحمة، العذاب، الإسلام، الصلاة، العرش، الكرسي، الجنّة، محمّد، إبراهيم،في صيغتها العربيّة الكاملة، وقد نجد كلمات أخرى جذورها العربيّة واضحة دون احترام للصيغة العربيّة الأصليّة مثال ذلك: اَصَلَ (أي الصلاة asala)، اَلِدِنْ (أي الدين aladín)، أنَبِ (أي النّبيّ anabí)، اَلْوَدُ (أي الوضوء alwadu)) اَلْمَلاَكَاسْ (أي الملائكة almalakes) .

وفي هذا المجال نجد أنّ الموريسكيّ لقدسيّة كلمة «اللّه» نادرا ما يستعمل في النّصوص الأخميادية كلمة ديوس (Dios) نظرا إلى دلالتها المسيحيّة، ويفضّل استعمال كلمة اَلَ Alá أي اللّه لبعدها الإسلامي أو لكمة سِنْيُورْ (Señor) نظرا إلى حياد معناها.

وإلى جانب الاقتراض أو التبنّي اللّفظي نجد المحاكاة الدلاليّة. وتتمثّل هذه الطريقة في تكوين مفردات إسبانيّة تتقمّص المفهوم العربي،وهو ما يساهم في إثراء اللّغة الأخميادية وخلق تنوّع لغويّ إسلاميّ في صلب اللّغة الإسبانيّة. وهذه بعض الأمثلة:

أ ــ في النصّ الأخميادو ، نجد العبارة التالية : El señor de las gentes وهي محاكاة للصيغة العربيّة «ربّ العالمين» .

ب ــ في النصّ الأخميادو، نجد الجملة التّالية : Alá akél Ke me guiyó al adín وهي محاكاة للجملة العربيّة : «اللّه الّذي هدَاني للإسلام».

فقد تعمّد الموريسكي استعمال اسم الإشارة Akél الّذي يتضمّن معنى نفخيميّا،وعَدَل عن استعمال اسم الإشارة (éste) الحيادي أو (ése) السلبي، والحال أنّ في الإسبانيّة لا داعي لاستعمال اسم الإشارة .

ج ــ في النصّ الألخميادو نجد :

. Esfuerçalos Kon esfuerço fermoso

وهي محاكاة دلاليّة للجملة العربيّة «فانصرهم نصرة جميلة». ومثل هذا التعبير لا نجده إطلاقا في الإسبانية .

د ــ محاكاة دلاليّة لبعض المواسم :

ــ ليلة القناديل : Noche de los Kandiles.

ــ ليلة الطهارة : Noche del tahor.

ــ ليلة الإستحمام : Noche del bano.

إنّ أهميّة النصّ الألخميادو لا تكمن في اعتباره وثيقة تاريخيّة، وإنّما في اعتباره كذلك وثيقة لغويّة. فالموريسكيّون بما كتبوه حاولوا جاهدين في تحدّ وإصرار المحافظة على هويّتهم العربيّة الإسلاميّة، فقاموا عن طريق هذا الأدب الّذي كُتِب في الخفاء بتقريب التراث الثقافي الإسلامي لإخوانهم ممّن أصبح عاجزا عن فهم هذا التراث في لغته الأصليّة. كما عبّروا به عن همومهم ومشاغلهم وسط مجتمع لا يكنّ لهم إلّا البغض والحقد. وتمسّكوا بالحرف العربي كتابةً نظرا إلى ما يجسّمه من قدسيّة دينيّة. وقد دفعتهم هذه العقيدة إلى الاقتراض من اللّغة العربيّة الفصحى، لغة القرآن، في مستويات عدّة: في المستوى الصوتي والمعجمي، وفي مستوى الألفاظ والصيغ، وفي مستوى التركيب والجمل. وقد وجدت هذه الأبعاد اللّغوية والأدبيّة في النّص الألخميادو اهتماما كبيرا من لدن الباحثين الغربيّين، غير أنّه ــ مع الأسف الشّديد ــ لم يلق بعد عِناية واهتماما من لدن الباحثين في الوطن العربي.

✤ ✤ ✤ ✤ ✤

الجنّة والنّار

دخل الأديب أبو القاسم بن العطّار الإشبيلي[1] حمّاما بإشبيلية، فجلس إلى جانبه وسيم خمريّ العينين. فافتتن بالنّظر إليه والمحادثة إلى أن قام وقعد في مكانه أسود فقال :

مَضَتْ جَنَّةُ ٱلْمَأْوَى وَجَاءَتْ جَهَنَّمُ فَهَا أَنَا أَشْقَى بَعْدَ مَا كُنْتُ أَنْعَمُ
وَمَا كَانَ إِلَّا الشمسُ حانَ غُرُوبُهَا فأَعْقَبَهَا جُنحٌ من اللّيل مُظْلِمُ

النفح : 3 /478

(1) ابن العطار الإشبيلي : أحد أدباء إشبيلية. يظهر أنّ ابن سعيد لم يعرف عصره بالضّبط ولذلك لم يضع المائة التي ينسب إليها، ويظهر أنّه كان في المائة الخامسة (ابن سعيد: الرّايات ص 44 تعليق عدد 5).